University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس عشر - ابريل 2017

المراصد والعيون في صدر الاسلام والدولتين الأموية والعباسية - دراسة لجهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية

د. عبدالرحمن صالح بكار.

(أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الآداب والعلوم المرج - جامعة بنغازي - ليبيا)

العدد السادس عشر - ابريل 2017

المراصد والعيون في صدر الاسلام والدولتين الأموية والعباسية - دراسة لجهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية

الملخص:

قمت بتقسيم هذه الدراسة إلي مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ، حيث شملت المقدمة نبذة مختصرة عن الموضوع ثم انتقلت إلي الفصل الأول الذي يحمل عنوان " المراصد والعيون في صدر الإسلام عهد النبي والخلفاء الراشدين والدولة الأموية" حيث بنيت فيه دور المراصد والعيون في عهد النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده ثم تكلمت عن كيفية تطور هذا الجهاز في العصر الأموي وفي الفصل الثاني "تنظيم الجهاز ورجاله" ، فقد أنصب الحديث فيه عن تنظيم هذا الجهاز منذ العصر الأموي حيث أسس ديوان البريد الذي لم يكن يترك شاردة أو واردة إلا وينقلها رجاله إلي دار الخلافة وأزداد تنظيم هذا الجهاز وتعددت مهامه خاصة في العصر العباسي وقد أشرف الخلفاء على هذا الجهاز حيث كانوا يختارون قادته ورجاله من يثقون فيهم كما حاولت رغم شحة المصادر أن أبين دور الجهاز في الاستعانة بالنساء والتجار والعلماء والصبيان وغيرهم من شرائح المجتمع وأستعمالهم كمخبرين بعلمهم تارة وبدون علم تارة أخرى .

أما الفصل الثالث (وظائف الجهاز ومهماته) فقد تناولت الدراسة وظيفة جهاز المخابرات (المراصد والعيون) والمهام المنوط بإنجازها .

ثم ختمت الموضوع بخاتمة عرضت فيها بإجاز أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة وأتبعتها بقائمة للمصادر والمراجع التي أستعنت بها لإنجاز هذا العمل .

المقدمة

يعتبر موضوع المراصد والعيون أو ما يعرف الأن بجهاز المخابرات من أخطر الموضوعات بحثاً في التاريخ الإسلامي ، ولعل سرية عمله هي التي حجبت الكثير من حقائقه عن أن تكون ضمن كتابات المؤرخين واهتماماتهم ، وكل من يقرأ كتب الآدب والتاريخ الإسلامي عامة لا يجد إلا إشارات عابره متفرقة تومئ وتشير إلى هذا الجهاز ولا تصفه ، وتشير إليه فقط بحذر ، ولا تقترب منه مما يجعل هذه الإشارات تثير فضول الباحثين لعلهم يستطيعون أكتشاف كنه أخطر الأجهزة الأمنية في الحضارة الإسلامية.

وموضوع المراصد والعيون موضوع قديم لم يكن حكراً على حضارة الإسلام ، فقد عرفته الحضارات السابقة كالفارسية والبيزنطية وقبلها الفرعونية ---- وغيرها.

والمعروف تاريخياً أن العيون والمراصد في الدولة الإسلامية بدأت منذ بداية الدعوة الإسلامية في مكة عندما أشتد إيذاء كفار قريش للرسول ﷺ ومن آمن به ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يبث عيونه ليقف على أخبارهم ، وعندما قرر الهجرة جعل عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق عيناً له ينقل أخبار القرشيين وهو في الغار ، ثم توالى أستخدامه لهذا الجهاز في المدينة خاصة في غزواته كبدر وأحد والخندق وغيرها ، مما فتح المجال أمام الخلفاء الراشدين لتنظيم هذا الجهاز بعض الشيء نظراً لتوسع الدولة الإسلامية أثناء وبعد حركة الفتوح التي حدثت منذ عهد أبن الخطاب ثم أنشئ هذا الجهاز رسمياً في عصر بنى أميه تحت مسمى ديوان البريد وتطور أكثر في عصر بنى العباس كما سيتضح من البحث .

وهذا ما دفعني لأختيار هذا الموضوع للكتابة فيه علنى أضيف شيئاً جديداً في هذا الجانب .

وسوف أقوم بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمه حيث سأتناول في الفصل الأول منه المراصد والعيون في عهد النبي والخلفاء الراشدين والدولة الأموية أما الفصل الثاني فسيتم التطرق فيه إلى تنظم الجهاز ورجاله وفي الفصل الثالث سيكون الحديث منصباً على وظائف الجهاز (المراصد والعيون) ومهامه .

والله من وراء القصد

وبالله التوفيق

الفصل الأول

المراصد والعيون في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والدولة الأموية

اولاً : المراصد والعيون في عصر النبوة :

لم يكن في حياة الرسول ﷺ شئ يمكن أن يسمى جهاز مخابرات لرصد تحركات أعداءه ، ولكن هذا له يعنى أن النبي ﷺ قد أهمل هذا الجانب ، وإنما كان يكلف عادة أحد أصحابه كلما رأى ضرورة لإستجلاء أمر من الأمور ، فقد قيل في سبب نزول قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ "[1] أن النبي ﷺ بعث أبن أبى معيط الوليد بن عقبه إلى بنى المصطفى لجمع الصدقة ، فلما رأوه وأقبلوا نحوه خاف منهم ورجع إلى النبي فأخبره أنهم أرتدوا عن الإسلام ، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد على رأس جيش وأمره أن يثبت ولا يتعجل في الهجوم عليهم ومحاربتهم ، فأنطلق خالد حتى آتاهم ليلاً وأرسل خالد بعض العيون ليأتوه بحقيقه أمرهم ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا آتاهم خالداً فرآي ما يسره ، فرجع إلى النبي وأخبره بذلك[2] وبغض النظر عن كون النبي هو من أمر خالداً بأتخاذ العيون على بنى المصطفى أو أن خالد هو الذي أجتهد في أتخاذ العيون ، إلاّ أننا يمكن أن نتصور أن أتخاذ العيون لم يكن غائباً عن ذهن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يوصى خالداً أن يتثبت ولا يتعجل ، لأنه لا يكون هناك معنى للتثبت من دون أتخاذ العيون عليهم لمعرفة بقائهم على الإسلام من عدمه.

وسواء أمر النبي ﷺ خالداً بإتخاذ العيون أو لم يأمر فإن سكوته على الطريقة التي أتبعها خالد في التحقق يمكن أن تدلنا على رضاه عنها ، وعلى أن بث العيون كان أمراً مألوفاً عنده في مثل هذه الحالات حتى أنه سكت ولم يأمر أو يوصى خالد بالطريقة التي يتثبت بها من أمرهم ، ولو لم يكن الأمر مألوفاً لرأيناه يوصى خالد بما يجب أن يفعل[3] .

ويؤيد ما نذهب إليه ما رواه أبن أبى أسحاق[4] في السيرة عن محمد بن جعفر أبن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره ، قالوا : " لما قرر الرسول عليه السلام المسير إلى مكة المكرمة ، كتب حاطب أبن أبى بلتعه كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بالذي أجمع عليه الرسول ﷺ من الأمر بالسير إليهم ثم أعطاه امرأة زعم أنها من مزينة وزعم لى غيره أنها ساره جارية لبعض بنى عبدالمطلب ، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ثم فتلت عليها قرونها ، ثم خرجت به وأتى النبي ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطباً ، فبعث علي بن أبى طالب كرم الله وجهه والزبير بن العوام رضى الله عنه فخرجا في إثرها حتى أدركاها[5] .

ونستدل من خبر حاطب هذا أن بعث العيون كان أمراً مألوفاً عند المشركين ، فما الذي يمنع المسلمين أن يكون مألوفاً عندهم أيضاً خاصة وهم شديدوا الحرص على دعوتهم ونجاحها وهناك خبر آخر لا يحتمل التأويل وهو ، في اثناء الهجرة والتى رتيب لها النبي ﷺ جيداً كان قد أرسل عيونه ليتجسس أخبار قريش ، وكان عبدالرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه هو عين النبي عليه الصلاة والسلام بمجالسهم نهاراً ويأتي إلى الرسول ووالده في الغار ليلاً ليقص عليهم ما سمعه من تخطيط القرشيين لقتله[6] .

وقبل موقعة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة ، أرسل الرسول عليه السلام عيونه لرصد تحركات أبو سفيان بن حرب بتجارة قريش ، والوقوف على عددها وعدتها ، والتعرض لها لغنمها تعويضاً عما فقده وتركة المسلمون في مكة المكرمة قبل الهجرة مكرهين مرغمين[7] .

وكان النبي عليه السلام يبث عيونه في كل معاركه ومغازيه ، ففى بدر وعندما عسكر عليه السلام عند بدر وأستولى على الماء وأحاط به ، حاولت قريش الأقتراب منه ليلاً ، فأرسل عليه السلام جواسيسه وعيونه أو ما يعرف حالياً بالاستطلاع ، فقبضوا على غلامين لقريش وعرف منهما النبي عليه السلام كم يأكل القوم في اليوم ، فعرف عددهم أنهم ما بين 950 والألف ، فأستعد لهم ، وأنتصر عليهم أنتصاراً كبيراً[8] .

وهناك رواية أخرى لا تحتمل الشك هي ما رواه حذيفة بن اليمان من أستعداد النبي عليه السلام لموقعة الخندق ، يقول حذيفة : " والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى الرسول هوياً من الليل ثم ألتفت إلينا وقال :هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ، فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد ، دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لى بد من القيام حين دعاني ، فقال : ياحذيفة أذهب فأدخل مع القوم ، فأنظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا ، قال : فذهبت فدخلت في القوم --- "[9].

وعلى الرغم من أن هذا الخبر من قبيل أستطلاع قدرة العدو القتالية إلا أنه يؤيد ما ذهبنا إليه من إذكاء العيون وبثها كان أمراً مألوفاً في عهد النبي ﷺ .

ورغم أنه لم يكن هناك جهاز متخصص بإدارة أعمال المخابرات ولم يكن هناك رجال مخصصون للعمل في هذا الجهاز ، وإنما كان الرسول ﷺ ينتدب بنفسه لهذه المهمة من يراه مناسباً لها من صحابته إلا أن تلك المهمات التي كان يقوم بها الصحابة لم تكن تقف عند معرفة ما يجب معرفته من أعداء الدعوة فقط ، وإنما كانت هذه المهمات أحياناً تعنى أغتيال أعداء الدعوة ممن تكون حياتهم خطراً عليها ، فقد روى عن عبدالله بن أنيس أنه قال : دعاني رسول الله ﷺ وقال : "أنه بلغني أن أبن سفيان بن بنيح الهذلي يجمع الناس ليغزوني وهو مقيم بينهم[10] فأته وأقتله ، قلت يارسول الله أنعته لى حتى أعرفه --- فنعته لى عليه السلام ، فأقبلنا نحوه وخشيت أن تكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشى نحوه ، أومي برأسي ، فلما أنتهيت إليه قال : من الرجل ؟ قلت رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك قال : أجل أنى لفي ذلك ، قال : فمشيت معه شيئاً حتى إذا تمكنت منه حملت عليه بالسيف فقتلته ثم خرجت ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ قلت قتلته يارسول الله ، قال صدقت"[11] .

على أنه يجب علينا ونحن نتحدث عن عصر النبوة أن ننبه إلى أن رسول الله ﷺ لم يكن يتوسع في معرفة أمور الناس من هذا الطريق ، وفي التنقيب عن أخبارهم ، وإنما كان يهمه أن يتعرف على أخبار أعدائه الذين يكيدون له وللدعوة الإسلامية ، وليس أخبار سواهم ، فقد نهى الله تعالى عن التجسس بقوله جل شأنه " وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً "[12] فقد أختص النبي عليه السلام لنفسه منهجاً رائعاً يدل على معرفة عميقة بالنفس البشرية حينما قال : "أن الأمر إذا أبتغى الريبة في الناس أفسدهم"[13] .

ومن هنا كان حرياً به أن يتعامل على وفق مبدأ الثقة في الناس ، حتى لقد بلغ هذا المبدأ من التمكن في نفسه ، أنه لما سأل حاطباً عما دفعه أن يتجسس عليه لقريش بعد إسلامه قال له حاطب : "يارسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ولكنى كنت أمرؤ ليس لى في القوم من أصل ولا عشيره ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم"[14] فهنا نلاحظ أن النبي ﷺ أكتفى بما قال حاطب ، ولم يتوجه إليه بشيء على الرغم من إلحاح عمر أبن الخطاب رضى الله عنه أن يقتل وتطوعه لضرب عنقه بسيفه[15] .

وإذا لم يكن الرسول ﷺ يتوسع في أمر بث العيون فأن طائفة من الصحابة كانوا يرون التجسس على المسلم إثماً مبيناً ، فقد روى أنه لما ولي سلمان الفارسى على المدائن بعد حذيفة بن اليمان في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كتب إليه عمر بن الخطاب يطلب منه أن يوافيه بأخبار حذيفة في ولايته ويستقصى أيام أعماله وسيرته ، ثم يعلمه بالقبيح منه ، فأمتنع سليمان لأنه لا يريد أن يعصى الله في تقصى أثر حذيفة طاعة لعمر[16] ولم يكن عمر رضى الله عنه يريد معرفة أخبار حذيفة ظناً فيه ولكنه كان يريد معرفة أخطاء حذيفة ليعالجها سلمان الفارسى حتى لا يظلم أحد في المدائن وهي التي كانت عاصمة كسرى الفرس وكلها من الموالي (الفرس) الذين مازال إسلامهم حديثاً ، فخاف عمر أن يظلم أحد من ولاته أحداً من رعيته --- .

ثانياً : المراصد والعيون في عهد الخلفاء الراشدين :-

كان أبوبكر الصديق أول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ في السنة الحادية عشره هجرية وفي عهده حصلت الردة حيث أمتنعت كثير من قبائل العرب عن دفع الزكاة ظناً منها أنها كانت تدفعها للرسول عليه الصلاة والسلام ، كما أدعى البعض النبوة كسجاح[17] ومسيلمة الكذاب وغيرهم ، فصمم أبوبكر الصديق على قتالهم ومحاربتهم ولذلك كان لابد له من بث العيون بين هذه القبائل ومدعى النبوة لمعرفة قوتهم وسلاحهم .

وعندما تولى عمر الخلافة سنة 13هـ وأتسعت الفتوحات الإسلامية في عهده مع دولتي الفرسى والروم كانت الحاجة ماسة إلى إرسال العيون والمراصد لرصد مواقع الاعداء والوقوف على قوتهم[18].

وعرف عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قيامه بجولات ليلية ليقف بنفسه على أخبار الخارجين على دين الله ومعرفة أحوال الناس وتقديم المعونة للمحتاج منهم ، وليست قصة أم الأيتام التي رآها عمر تغلى الماء لتصبر أولادها على الجوع وقيامه بحمل الدقيق وطهيه لها ولأولادها فأكلوا منها حتى شبعوا وناموا ببعيده عن أذهان المسلمين كما أشتهر الخليفة عمر بن الخطاب بمراقبته لولاته وشدته معهم فقد عزل أبو موسى الأشعرى عن البصرة وشاطره ماله ، وعزل أبا هريره عن البحرين وشاطره ماله ، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله ، ولم يتم هذا العزل والمحاسبة إلا بناء على معلومات وصلته من عيونه على هؤلاء الولاة ، وهم في الاغلب مصادر أمينه أغلبهم من الفقهاء والأتقياء من الصحابة[19] على أن شدة عمر لم تكن مقتصره على تصرفات الولاة وزيفهم وإنما صرف هذه الشدة لمراقبة عدوه الخارجى أعنى الروم ، فقد أنهى إليه أحد ولاته على الشام أن هناك مدينة تقع بين الشام وبلاد الروم أسمها (عربسوس) وأن أهل هذه المدينة يتجسسون للروم على المسلمين ، فلا يخفون من عوراتهم شيئاً ، فقال له عمر : إذا قدمت عليهم فخيرهم بين أن يُعطوا مكان الشاة شاتين وكل شئ شئين، فإن رضوا بذلك فأعطهم وخربها ، وإن أبو فأنبذ إليهم وأجلهم سنة ثم خربها ، وسبب إصرار عمر على تخريب المدينة في الحالتين جاء من قناعته أن هذه المدينة لا يمكن أن يؤتمن أهلها في نقل أخبار المسلمين بسبب موقعها القريب من الروم ، وأن الروم إن أخفقوا في شراء أهل هذه المدينة للتجسس على المسلمين فإنهم لن يخفقوا في شراء ضعيف النفس ، كما أن قرب موقعها من بلاد الروم يمكن أن تغرى الروم بأن يدسوا من أتباعهم من يأتيهم بأخبار المسلمين .

أما الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه فلم يكن بمثل يقظة عمر أبن الخطاب أو شدته مع ولاته ، فقد أتهم واليه على الكوفة (الوليد بن عقبة بن أبى العيط) أنه صلى بالناس وهو سكران فشكوه لعثمان ، فأمر علياً بجلده ، فأمر علي عبدالله بن جعفر فجلده[20] .

ويتهم البعض عثمان بن عفان بأنه ترك الأمور لمعاوية بن أبى سفيان ، يفعل ما يشاء في الشام ، كما أن عثمان بن عفان لم يستعمل العيون والجواسيس على ولاته وأعدائه ، فكانت نهايته بالفتنة الكبرى عام 35هـ/ 655م ، التى أدت إلى مقتله[21] .

وعندما تولى علي بن أبى طالب الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان عام35هـ/ 655م ، كان لابد أن يكون حازماً في معرفة ما يدور حوله ، وفي أختيار عمال حازمين ، ولعل في كتابه إلى قثم بن العباس[22] عامله على مكة المكرمة دليلاً على ما نقول ، فقد قال له وقد كتب إليه أحد عيونه بالمغرب يخبره" أن معاوية دس على الحجاج في الموسم أناساً من أهل الشام العُمى القلوب ، الصم الأسماع ، يلتمسون الحق بالباطل --- فأقم على ما في يديك قيام الحازم الصلب"[23] .

ونستخلص من الخبر أنه لم يكن هناك جهاز يتولى مراقبة الصراع السياسى الذى يمكن الخليفة من أتخاذ القرار المناسب في إدارة الصراع ، وإنما كان الخليفة ينتدب بنفسه من يرى أنه مناسباً لمثل هذه المهمة (مهمة التجسس على العدو) .

والجدير بالذكر أن الخليفة علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كانت المعلومات تأتيه بكثره وتتهيأ له أينما حل أو أرتحل ، ولعل سبب ذلك أن الذين ثبتوا على بيعته لم يثبتوا عليها لكونها بيعة لا يحل لهم نقضها فحسب ، وإنما لأنهم كانوا مؤمنين ببطلان ما يدعيه خصومه بطلاناً مطلقاً ، ولأنهم كانوا يرون فيه إمام من أئمة الهدى لا خليفه فحسب ، وإلا فمن اللافت للنظر أن يفارق المدينة ولم يمر أربعه أشهر على مبايعته بالخلافة فيرد عليه كتاب من أخيه عقيل وهو في الطريق من المدينة يقول فيه: " قدمت من مكة فسمعت أهلها يتحدثون أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة واليمامة ، فأصاب ما شاء من أموالها، ثم أنكفأ راحباً إلى الشام"[24] فيجيبه علي بن أبى طالب بما يدل على علمه بالخبر مفصلاً بقوله: " وأما ما ذكرت من غارة الضحاك على الحيرة واليمامة ، فهو أذل من أن يكون قد مر بها ، فضلاً عن الغارة ولكن جاء في خيل جريدة فسرحت إليه جنداً من المسلمين فلما بلغه ذلك ولى هارباً"[25] .

ومما سبق يتضح لنا أن الذى فعله الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده ، يعتبر النواة الأولى للعيون والمراصد أو هو نواة جهاز البريد وهي نواة لم تتضح بعد ، لأن الخلفاء الراشدون كانوا يفعلون ما يفعلون خدمة للدين الجديد ودولته الناشئة ، وبعبارة أخرى لأن ما كان يعصم هؤلاء الخلفاء أن يأخذوا الناس بالظن والتهمة إيمانهم بالله واليوم الآخر وخوفهم من الله وأحترامهم لتعاليم النبي عليه الصلاة والسلام ، مما هيأ جو من العدالة والمساواة بين الناس ، وإتساع روح المحبة والطمأنينة بين المسلمين في شتى أنحاء البلاد الإسلامية .

ثالثاً : المراصد والعيون في عهد الدولة الأموية 41- 132هـ/ 661- 750م :-

بعد تسلم معاوية بن أبى سفيان مقاليد الخلافة عام41هـ/ 661م ، تحولت الخلافة إلى ملك وراثي لبنى أميه[26] .

وبدأ معاوية الخلافة بتأسيس أول جهاز للعيون والمراصد رسمياً في تاريخ الإسلام ، أو ما أطلق عليه ديوان البريد ، وقد أهتم به معاوية أهتماماً كبيراً[27] فقد كانت روح الأنتقام من قتلة عثمان تملؤه ، فأطلق أيدى ولاته في قتل كل من يشتبه أنه شارك في الفتنه الكبرى التي أدت إلى مقتل عثمان رضى الله عنه[28] .

وليست حال زياد بن أبيه واليه على البصرة ، وحال بسر بن أبى أرطاه مبعوثه إلى المدينة ومكة واليمن بخافية على أحد ، فقد بلغ زياد بن أبيه من توعد المعارضة أن قال : " لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلاّ ضربت عنقه"[29] ، وكان يعنى زياد بالعامة المسلمين الذين لا يريدون لابن أبى سفيان بيعة صحيحة في أعناقهم ، وكأن زياد يريد أن يقول لأهل الرأي من المسلمين وأصحاب الحل

والعقد منهم إلا يخوضوا في أمر خلافة معاوية ، يقول أبن الأثير[30] " بلغ أبن أبيه بحيث كان أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة فزياد أول من أتخذ من الحرس خمسمائة لا يفارقون المسجد وأول من سير بين يديه بالحراب"[31] .

والمعروف أن هذا الذى أتخذه زياد من الحرس هو وظيفة أمنية ، يفترض أن يقوم عليها جهاز أمني، ونحن هنا لا يهمنا ماذا يسمى هذا الجهاز ، وإنما يهمنا دلالته ، ووظيفته إذا أن الحرس غير الشرطة ، فقد جاء في تاج العروس للزبيدي[32] "الحرس واحد حرس السلطان الذين يرتبون لحفظه يذهب به إلى معنى الحراسة دون الحبس" ومعنى قول الزبيدى أن الحرس هو من طبقة خاصة وأن شئت ضمن جهاز خاص ولو كان الحرس من الشرطة مثلاً لجاز أن نقول عنه حارس ، ويؤيد قول الزبيدى أن زياد بن أبيه أستعمل على هؤلاء الحرس شيبان السعدى على حين أننا نعرف أن صاحب الشرطة في عهده كان عبدالرحمن بن حصن والجعد بن قيس التميمى[33] .

كما أتخذ معاوية الحرس أثناء ولايته على الشام في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وكان على حرسه نصير بن عبدالرحمن والد القائد موسى بن نصير فاتح بلاد الاندلس[34] على أن مهمة الحرس في عهد معاوية على الشام لم تكن أكثر من حماية صاحب السلطة لأن معاوية نفسه بعد أن صار خليفة ، أوكل إلى أبن آثال مهمة أغتيال عبدالرحمن بن خالد بن الوليد حين رأى ميل أهل الشام إليه فخشى منه على خلافته[35] وكان وعدة أنه إذا أغتاله أعفاه من دفع خراج أرضه .

ولنضرب مثلاً بما فعله بسر بن أبى أرطأه ، فقد بلغ من روح الجريمة في أخذ المعارضة على الشبهة التي لا يقوم عليها لا مخبر موثوق ولا شبه موثوق أنه أقام بالمدينة شهراً يستعرض الناس ليس أحدهم يقال هذا أعان على عثمان إلا قتله[36] .

وعلى كل حال فإن تأسيس جهاز المراصد والعيون رسمياً كان في عهد معاوية أبن أبى سفيان وذلك بسبب خوفه على نفسه من ناحية وتأميناً لدولته من ناحية أخرى.

الفصل الثاني

تنظيم الجهاز ورجاله

يعود تأسيس هذا الجهاز إلى أيام معاوية بن أبى سفيان - كما مر بنا - وكان أصحاب الشرطة هم الذين يتولونه في العادة فيما سمى بنظام العرفاء (العريف) ، الذى طوره عبدالله بن زياد بن أبيه تطويراً كبيراً ومدهشاً حين ولاه يزيد بن معاوية الشرطة عام (56هـ/ 679م) ، فقد حدد مهمات العريف كأجلي ما يكون التحديد حين قال يخاطب العرفاء : " أكتبوا إلىّ الغرباء ومن فيكم ممن طلبه أمير المؤمنين ، ومن منكم من أهل الريب الذين رأيهم الشقاق والنفاق والخلاف ، فمن كتبهم لنا فهو برئ ، ومن لم يكتب لنا أحداً فيضمن لنا ما في عرافته ألاّ يخالفن منهم مخالفاً ، ولا يبغى علينا منهم باغي ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة ، وحلال لنا دمه وماله ، وأيما عريف وجد في عرافته من بقية أمير المؤمنين أحداً لم يرفعه إلينا صلب على باب داره وألغيت تلك العرافة من العطاء"[37] .

وفي العصر الأموي لم يترك ولاة بنو أمية الأمور للعرفاء أو أصحاب الشرطة فقط ، وإنما كانوا يتولون بأنفسهم إدارة شئون التجسس على الناس ، فأثناء ثورة عبدالله بن الزبير بمكة ، أمر عمرو بن سعيد الأشوق أمير الحجاز على عهد يزيد أبن معاوية أن يجعل على طرق مكة وشعابها رجالاً لا يدعون أحداً يدخل حتى يكتبوا أسمه --- وأسم أبيه ومن أى البلدان هو وسبب مجيئيه[38] .

وكان كل ذلك يرفع إليه بإستمرار ، ولم يستمر الوضع على هذا الحال ، فقد تأسس ديوان البريد رسمياً عام (77هـ/ 700م) على أيام عبدالملك بن مروان ولم يكن من مهمات ديوان البريد التجسس كما هو الحال في العصر العباسي إلاّ أن بعض الأخبار توحي بذلك ، فقد عهد عبدالملك بن مروان إلى قبيصة بن ذؤيب بالخاتم والسكة ، وكان يأتيه بالأخبار والكتب ، وكان عبدالملك يأمر حجابه أن لا يحجبوا شيئاً عن قبيصة مطلقاً ، ويمكن أن نستنتج بيسر وسهولة أن عهد عبدالملك إلى قبيصة بالخاتم معناه أن قبيصة هو صاحب ديوان البريد وبذلك أتمنه الخليفة على سره[39] .

ومن الجدير ذكره أن بنى أمية أرسوا مبدأ هام في أمر العيون وجهازها ، وهو أن لا يعرف الجواسيس العاملون فيه بعضهم بعضاً وقد وضح هذا المبدأ في الرسالة التي كتبها عبدالحميد الكاتب على لسان آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد الملقب بالحمار إلى ابنه وولى عهده عبدالله ، وقد أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى وكان من الخوارج عام (128هـ/ 751م) ، فقد أوصاه بالحذر من أن يعرف بعض جواسيسه بعضاً مخافة أن يتواطؤوا على نقل ما لا صحة له من الأخبار ، وأوصاه إلاّ يعرف هؤلاء الجواسيس حيث يشار إليهم[40] .

أما حين يحتاج بعض الجواسيس والعيون أن يعرف بعضهم بعضاً في مهمة يقومون بها معاً ، فإنهم يلجأون إلى كلمة السر ، فقد كانت كلمة السر بين أبى عبدالله الموصلي وبين الخادم المصري وكلاهما ممن أستخدمه عضد الدولة البويهي في جهازه (صديقك يقرئك السلام)[41] .

وفي العصر العباسي لم يكن من خلفاء بنى العباس من هو مثل أبى جعفر المنصور (136- 158هـ/ 753- 774م) فقد كان يؤرق هذا الرجل سؤال واحد ، وهو كيف أنقرضت دولة بنى أمية بمثل هذه السرعة ؟ وكيف يحتاط مما وقعت فيه الخلافة الأموية فيحفظ دولة بنى العباس الوليدة ، فكان لابد أن يسأل أحد كبراء بنى أميه فيقول له : " إني أسألك عن أشياء فأصدقني ولك الأمان كله قال نعم، فقال له " :من أين أوتى بنوا أميه حتى أنتشر أمرهم ؟ قال : " من تضييع أخبارهم --- قال: " فعند من وجدوا الوفاء ؟ قال : "عند مواليهم" ، فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ، ثم قال : أضع من أقدارهم فأستعان بمواليه[42] .

ويعتبر أبو جعفر المنصور أول من أرسي الولاء المطلق في أختيار العيون الذين يعملون في جهاز الأخبار وديوان البريد فكان ولاءهم لشخصه ولدولة بنى العباس بغض النظر عما ينادون به ، وعما يسوسون به الناس[43] .

ولم يكن يثق أبو جعفر المنصور بمواليه تماماً ، فقد كان ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون إليه أيام خلافته في كل يوم --- بما يجد من أخبار ، ومع هذا فقد روى عنه أنه كان يقول : " ما أحوجى إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم ، قيل له من هم ؟ قال : " هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلاّ بهم ، إن السرير لا يصلح إلاّ بأربع قوائم ، أما أحدهم فقاضى لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب خراج يستوفى ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غنى والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة ، أه أه ، قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ، قال صاحب بريد يكتب لى بخبر هؤلاء على الصحة[44] .

وقد أشرف أبو جعفر المنصور بنفسه على جهاز عيونه فقد روى عنه المهاجر بن عمار الخزاعي ، قال : " بعثني أبو الدوانيق[45] اي أبو جعفر المنصور إلى المدينة وبعث معي مالاً كثيراً ، وأمرني أن أتضرع إلى آل البيت ، وأتحفظ مقالتهم ، قال فلزمت الزاوية التي مما يلى القبر ، فلم أكن أتنحى عنها في وقت الصلاة لا فى ليل ولا في نهار ، وأقبلت أطرح إلى المتسولين الذين حول القبر الدراهم ومن هم فوقهم الشيء بعد الشيء ، حتى ناولت شباباً من بنى الحسن حتى ألفوني وألفتهم في السر"[46] .

وقد أوصى أبنه المهدى بقوله : " وأعدوا رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك "[47] .

ولعل تشدد المنصور في حفظ ملكه وأخذ الناس بالظن ، هو الذى جعل أبنه المهدى حين أستخلف يطلق سراح السجناء المعارضين لسياسة أبيه ممن لا يخشى خطرهم[48] ، وكان من إنجازات الخليفة المهدى في تنظيم ديوان البريد أن أمر عام 166هـ/ 782م بإقامة البريد بين مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام وبين مكة واليمن ولعل الخوف من العلويين وثوراتهم وإن لم يثر أحد في عهده كان من بين الأسباب التي جعلته يعنى بالمدينة ومكة ، وكان من إنجازاته أنه أسس - ما يعرف في عصرنا بشعبة ملاحقة الزنادقة وولى عليها عمر الكلواذى ثم حمدويه ثم محمد بن عيسى[49] .

وكان من جملة الوصايا التي يوصى بها الخلفاء والملوك أنه لا ينبغي للملك أن يجعل بينه وبين البريد وأصحاب الأخبار واسطة ، ولا يجعل بينهم وبين الوزراء تعلقاً[50] .

وكان الجهاز يتكون من مخبرين لهم رؤساء ، فقد كان على عهد أبى جعفر المنصور من سمى بصاحب الستة ، ووظيفته أن يكتب عن الطارئين من الضيوف والزوار على هذه الدار أو تلك من ذاك الزقاق أو ذاك[51] .

وكانت بغداد قد قسمت إلى أرباع اي محلات ، لكل ربع منها مسئول أعلى وكان المسئول عن هذه الأرباع في عهد الخليفة المأمون هو إبراهيم بن السندي ، وكان أصحاب البريد مسئولون عن جمع الأخبار وموافاة صاحب بريد الحضرة الشريفة بها ، ومن هنا كان من رسوم أصحاب البريد في المخاطبة الرسمية أن يخاطب كل واحد منهم برتبة في الجهاز ، وكان أصحاب البريد أيضاً مسئولون عن دواب البريد التي تنقل الأخبار[52] ، وما يضمن وصولها بسرعة ، لأن الخلفاء أعتادوا أن يخصصوا أوقات معلومة للنظر في الأخبار ، فقد كان المنصور مثلاً ينظر في البريد الوراد عليه بعد صلاة العشاء من كل يوم ، أما عضد الدولة البويهي فقد بلغ حرصه على ورود البريد عليه أن يصل البريد في وقت معلوم فإن تأخر قامت القيامة ووقع البحث عن العائق العارض[53] .

أما عن رجال الجهاز : فأدنى مراتبة المخبرين كما هو الحال في عصرنا الحاضر ، وكانوا من مختلف طبقات المجتمع ، فيهم الطفل والمرأة والمحتال وابن السبيل[54] .

وأول من أستعمل المرأة كمخبر من الخلفاء هو أبو جعفر المنصور إذا أتخذ من حجامة مخبرة ثم أرساه وتوسع فيه الخليفة المهدى فقد روى عنه حبه الجم للنساء ، وأنه كان يبلغ من هذا الحب بحيث يفاوض في أمور النكاح وزيره الشيعى الزيدى يعقوب بن داوود الذى كان لا يختلف عنه في حب النساء والنكاح حتى إذا شك في ولائه أهدى له جارية حسناء تكون عيناً عليه.

وكان سبب نكبة يعقوب بن داوود على يد المهدى جارية وشت عليه[55] .

ويبدو أن الخلفاء المسلمين بعد خلافة الراشدين قد أتخذوا النساء وسيلة في أصطياد الرجال سياسياً حتى بلغ الأمر بأحد تجار الرقيق في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي من تحذير الناس من شراء جارية تخرج من بيت حاكم أو أمير أو سلطان أو لها دراية بالكتابة ، فإن هذه صلة قد هلك بها جماعة من الملوك والرؤساء[56] .

أما الأطفال المستخدمون في جهاز العيون والمراصد فينبغي أن لا نتصور طفولتهم وهي في سنيها الأولى براءتهم بحيث يكونون من مصادر الخبر عن ذويهم ، فقد روى أنه كان معلمو الصبيان موافقين على أن يسألوا أولاد الجند الذين في مكاتبهم عن أمور أباءهم ومتصرفات أحوالهم في منازلهم ويكتبون بذلك إلى ديوان البريد ولهم على ذلك رزق دائم[57] .

وكان للفقراء دور آخر في التجسس بشرائهم بالمال ، بل أن الخصيان كونهم ممن يحب الناس معاشرتهم ، كان دورهم في جهاز التجسس واضحاً ، بل أن الفقهاء والمثقفين والأدباء وطلبة العلم قد ساهموا بدور ما في هذا الجهاز كل حسب ميوله ومذهبه .

هذا ما كان من أمر المجندين الصغار الذين لا يلتفت التاريخ إلى أسمائهم في العادة ، أما الذين هم أكبر فقد حفظ لنا التاريخ طائفة من أسمائهم ملمحاً مرة ومصرحاً في أخرى .

فقد أعترف أبو حيان التوحيدي أنه أمتنع عن مصاحبة ابن موسى إلى الجبل لأنه كلف أن يكون عيناً عليه لأن أصحابه أستغلوا فقره ووظفوه في جهاز المخابرات ليكون عيناً لهم دون أن يدرى[58] .

ومنهم إبراهيم السندي الذى مر ذكره ومنهم مسلم بن الوليد وقبيصة بن ذؤيب وسعيد بن حميد الكاتب --- ومهما يكن من أمر فإن هذا الجهاز كان يستخدم كل من أستطاع أستخدامه ولكن ما هى وظائفه ومهماته ، هذا ما سنجيب عليه في الفصل الثالث .

الفصل الثالث

وظائف جهاز العيون والمراصد ومهماته

من البديهي أن تكون وظيفة أي جهاز للمخابرات والعيون والتجسس هو حفظ آمن الدولة ، ولكن ما يختلف فيه هو مفهوم هذا الأمن من صاحب خبر إلى آخر ، أومن خليفة إلى سواه ، فقد كان المنصور مثلاً يرى أن أستقرار الأسعار جزء من أمن دولته ، فكان يكتب إليه ولاة البريد في الآفاق كلها في كل يوم بسعر القمع والحبوب وبسعر كل مأكول --- فإذا وردت كتبهم نظر فيها ، فإذا رأى الاسعار على حالها أمسك وإن تغير شئ منها عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك ، وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره[59] .

وكانت ولازالت المهمة الرئيسية لهذا الجهاز هي التجسس على المعارضين السياسيين ، وكان يترك لصاحب الخبر أو الجاسوس أو العين تقدير من يتجسس عليه ، وكان وجوه المجتمع سواء كانوا من المثقفين أو من أهل الدين أو من أهل النفوذ الاجتماعى موضوعين تحت الرقابة ، ومنهم الشعراء ولعل هذا ما يفسر أتخاذ بعض الشعراء والأدباء عيوناً تتعاون مع الجهاز إن لم تكن من أفراده ، فمن غير المعقول أن يتجسس على الأديب غير الأديب[60] .

فإذا تجاوزنا الشعراء إلى أهل التدين والتصوف رأينا أن هشام بن عبدالملك قد أخذ الجعد بن درهم لما قال بخلق القرآن ، وأرسل به إلي واليه على العراق خالد القسري ليقتله[61] .

ولم تكن المراقبة لهؤلاء جميعاً أو غيرهم تقف عند من هم طليقوا السراح ، وإنما كانت هذه المراقبة تتم حتى على الموجودين في السجون ، فقد وكل الرشيد بأبي العتاهية من يكتب إليه بأخباره وهو في السجن[62] .

ولم يقتصر دور الجهاز على مراقبة رجال السياسة وحدهم لمعرفة أخبارهم ، وإنما كان يجرى مراقبة الصيارفة بإعتبارهم سبيلاً من سبل جمع المال لهذا الثائر أو ذاك تحت ستار جمع الزكاة وكانت هذه المراقبة تجرى بإتخاذ بعض الصيارفة كجواسيس على زملائهم ، فقد أتخذ أبو جعفر المنصور من أبن مقرن الصيرفي عيناً له على أهل الكوفة ليطمئن على حكمة عليهم .

ولكن هذه الحال تغيرت عندما دب الضعف إلى الخلافة العباسية ، فصار من شأن الجهاز أن يراقب الناس كافة ، وكان كل منهم خطر على الدولة ، فقد رفع إلى الخليفة المقتدر بالله (295- 320هـ/ 908-932م) ، أن مسجداً بالشام يجتمع فيه الناس ممن أعتنقوا التشيع مذهباً ويقصدونه للصلاة والجلوس فيه لسب الصحابة ، والخروج عن الطاعة ، فأمر بكبسه يوم جمعه وقت الصلاة ، فكبس وأخذ من فيه ، فعوقبوا وحبسوا حبساً طويلاً وهدم المسجد حتى سوى بالأرض[63] .

وكان من مهام الجهاز أغتيال من يقدر أن في حياته خطراً من رجال المعارضة السياسية على الخلافة ، فقد أغتال أبو جعفر المنصور ، أبا الجهم بن عطية مولى باهلة وكان من خواص أبو مسلم الخراساني ، بأن دسي إليه السم في سويق اللوز ، فشربه ومات[64] وفرح المنصور فرحاً شديداً فقال ساخراً :

تجنب سويق اللوز لا نشربنه

فشرب سويق اللوز أردى بالجهم[65]

كما دس المنصور بنفسه لولى عهده عيسى بن موسى بعد أن رفض أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه المهدى - دس له بعض ما يتلفه فأستأذن عيسى المنصور أن يذهب إلى الكوفة ليتعالج بها مما أصابه من تساقط لشعره ، وأختلال في سمعه وبصره[66] .

وكانت السرية المطلقة هي أساس تنفيذ هذه المهمات ومن أخطرها ما خاطب به الرشيد السندي بن ناهيك ليلة نكبة البرامكة يأمره بتطويق دورهم ، إذ قال له : " قد بعثت إليك في أمر لو علم به زر قميص رميت به في الفرات---"[67] .

كما لجأ الرشيد إلى طريقة أخرى في التخلص من خصومه وهي قتلهم خلسة وهم في السجن مثلما فعل مع يحيي بن عبدالله العلوى والامام موسى الكاظم[68] .

كذلك من مهام وظائف الجهاز تشويه سمعة المعارضين تشويهاً يضمن نفرة الناس منهم والتقليل من شأنهم .

ومن وسائل التقليل من أهمية المعارضين التكتم على ما يقومون به من نشاط سياسى ، فمن ذلك ما روى أن المعارضين للعباسيين وزعوا ما يعرف بلغتنا المعاصرة - منشورات سياسية في بغداد تحدث عنها صاحب الجهاز في عهد الخليفة المأمون العباس ، إبراهيم بن السندي فقال : وجدنا رقاعاً في طرقات بغداد فيها شتم للسلطان ، وكلام قبيح فكرهت رفعها على ظاهرها لما فيها ، وكرهت أن أطوى ذكرها وأنا صاحب خبر ، فينقلها غيرى من جهة آخرى فيلحقني ما أكره ، فكتبت له : " إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رقاعاً فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهديد ووعيد ، بعضها عندنا محفوظة إلى أن يأمر فيها أمير المؤمنين بأمره ، فكتب إلى بخطه ، هذا أمر إن أكبرناه كبر غمنا به وأتسع علينا خرقه فمر أصحاب أخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعه أن يمزقوها قبل أن ينظروا فيها ، فإنهم إن فعلوا ذلك لم ير لها أثر ولاعين---"[69] .

ويدخل في باب التهويل من شأن الجهاز المجاهرة بما أنجز ، فمن ذلك أن المنصور لما أخذ عبدالله بن الحسن وإخوته --- صعد المنبر ثم قال : " بلغني عن بعضهم السقم والتعرم ، وقد دسست رجالاً فقلت : قم يا فلان قم يا فلان ، فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا ثاب ولا صغير ولا كبير إلاّ بايعهم بيعة أستحللت بها دماءهم وأموالهم ، وجلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة ، فلا يرون أنى أتيت ذلك على غير يقين[70] .

والمنصور هنا يكذب ويعلم أنه يكذب ، فقد خرج الناس مع بنى الحسن بفتوى الإمام مالك بن أنس ، إذا أفتاهم بأنهم بايعوا أبا جعفر مكرهين وأن ليس على مكره يمين[71] .

ويدخل في باب أستعراض قوة الجهاز مراقبة العامة من الناس في شئون معايشهم ، ولم يكن يخشى أصحاب السلطان هؤلاء العامة في شئ بمقدار ما يخشون أن يهملوا مراقبتهم فيستقر في أذهانهم أنهم بعيدون عن أنظار أولى الأمر .

ومن مهمات الجهاز حفظ هيبة الخلافة عن طريق مكافحة ما يشاع من أمرها على ألسن الناس ، مما قد يكون وراءه المعارضة فقد روى أنه" أبطأ المنصور عن الخروج إلى الناس والركوب فقال الناس : هو عليل ، فدخل عليه الربيع فقال" يا أمير المؤمنين - لأمير المؤمنين طول البقاء ، والناس يقولون ، قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون : عليل ، ثم مكث أياماً وقال يا ربيع أضرب الطبل ، فركبا حتى رآه العامة[72] .

ومن وجوه حفظ هيبة الخلافة تأويل ما يقع لها تأويلاً بعيداً عن جوهر الحادثة ، فمن ذلك ما روى من حادثة أغتيال الخليفة المعتضد بالله عام284هـ/ 897م ، فقد ألقيت تلك المحاولة على عاتق الجن ، وأستعدى لها المعزمون والسحرة[73] .

ومع ذلك فلا يظن أحد أن مثل هذه الإجراءات سواء ما كان منها يتعلق بأستعراض قوة الجهاز أو مكافحة الإشاعات ، كانت تنطلق من قوة أو كانت تدل على قوة ، بل العكس من ذلك كانت تدل على الضعف حيناً ، وعلى شئ من قلة الثقة بالجهاز أحياناً أخرى ، ومن آيات هذا الضعف أن أبا جعفر المنصور وهو في أوج قوته - كان ينام في غرفة نستطيع أن نصفها بأنها غرفة سرية بائسة لا يعلم بمكانها إلاّ أهل بيته، وكثيراً ما تعرض الخلفاء للأغتيال خاصة في العصر العباسي ، فقد تعرض ابو جعفر المنصور لمحاولة أغتيال خطط لها أن تكون أثناء حجة سنة140هـ/ 757م ، كما جرت محاولة أغتيال للخليفة المعتضد بالله عام (279- 289هـ/ 892- 901م) ، وفي عام312هـ/ 924م تعرض الخليفة المقتدر بالله لمحاولة أغتيال ، ولذلك أتخذ الخلفاء بصورة عامة - ماعدا الراشدون - حرساً يحمونهم ، وتوسعوا في الحراسة ، فصار من مهام الحرس أن يخلوا الأماكن التي يزورها الخليفة من الناس ، فقد روى عن الوليد بن عبدالملك أنه لما حج بالناس سنة92هـ/710م ودخل المدينة " ذهب إلى المسجد ينظر إلى بنائه ، وأخرج الناس منه ، ولم يبق غير سعيد بن المسيب ، لم يجرؤ أحد من الحراس أن يخرجه[74] .

ولم يشذ خلفاء بنوا العباس عن خلفاء بنى أمية في أمر الحراسة ، بل زادوا عليهم ، فقد صار لهم جند يحرسونهم ويمنعون الناس من الوصول إليهم ، فقد روى عن المعتصم بالله (218- 227هـ/ 833- 841م) أنه كان منصرفاً من المصلى في عيد الفطر ، فلما صار في مكان ما ، نظر إلى شيخ قد قام إليه ، فقال يا أبا إسحاق ، فأبتدره الجند ليضربوه ، فأشار إليهم المعتصم ، فكفهم عنه[75] .

وهكذا أحتاط الخلفاء خوفاً من أغتيالهم عن طريق الحراسة وعن طريق عيونهم ، وكان على المعارضين أن يتقوا الوقوع في فخاخ هذا الجهاز الخطير ، وكانوا يتقونه بأساليب كثيرة كالعمل بسرية والأحتراس من الجهاز ورجاله ، فقد زاد تعذيب المعارضين في العصرين الأموي والعباسي بصورة بشعة ، فقد أضاف الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً الصلب بعد القتل ثم الأحراق في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك ، فقد بقى بدن زيد بن علي بن الحسين مصلوباً من دون رأس على أيام هشام بن عبدالملك وبعد وفاته وتولى الوليد أمر بإنزاله وإحراقه[76] .

وكما كان الأمويون يعذبون معارضيهم أثناء التحقيق ، كان العباسيون كذلك ، وكانت هناك أساليب متعددة للتعذيب أغلبها يتم داخل السجون لانتزاع الاعترافات عن طريق الإيذاء الجسدي ، ومن بين الأساليب المتبعة لديهم في التعذيب ، الضرب والتعليق والتدخين حيث كان يتم في مكان مغلق عن طريق إشعال النار في أعواد التبن الرقيقة لكى يضيق تنفس المتهم فيعترف وكذلك التشميس ، وذلك بأن يكتف الشخص ويلقى تحت الشمس الحارقة ، ومن أساليب التعذيب ، الضرب بالسياط ، وهو ما يعرف بالجلد[77] ومن التعذيب ما هو نفسى وليس جسدي كأن يروع المعذب بخبر كاذب ، كما فعل المنصور بوالد النفس الزكية عبدالله بن الحسن إذ دس إليه وهو في السجن من يخبره كذباً أن أبنه محمداً قد ثار بأبي جعفر ، وأنه قتل فأنصدع قلبه فمات[78] أو أن يواجه بما تشق عليه رؤيته ، فقد ذبح ابن الوزير أبن الفرات وهو في السجن كما تذبح الشاه ثم حمل رأسه إلى أبيه فأرتاع لذلك أرتياعاً شديداً[79] ، أو أن يروع الشخص بإنتظار السيف لقتله ، وقد أستعمل الحجاج هذه الطريقة ، ومن التعذيب النفسى التشهير بالضحية وقد حدث هذا للفقيه محمد بن العباس الذهلي ، حيث ضرب بالدرة عرياناً وشُهر به في الأسواق ، وقد تعددت أساليب التعذيب التي سنها الخلفاء والحكام للحفاظ على ملكهم وحكمهم ، ومع هذا فجهاز المراصد والعيون أو ما يعرف بالمخابرات الآن كان جهازاً محكماً معمولاً به بدقة وإحكام .

- **الخاتمة:**

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الحضارة العربية الإسلامية قد كان لها الفضل في تأسيس وتطوير كل ما يتعلق بأمور الدولة من جميع النواحي السياسية والإدارية والمالية والعسكرية والأمنية وكان لجهاز المراصد والعيون دور كبير في حفظ الأمن العام داخلياً وخارجياً وقد أستعمل هذا الجهاز كل ما يمكنه إستعماله وأستغلاله لتأدية عمله على الوجه المطلوب حيث جند النساء والأدباء والعلماء كل في مجال عمله وتخصصه حتى يتمكن من كشف المعارضين لسلطان الدولة من الفرق الإسلامية والمذاهب التي كانت تقوم بين الحين والحين بالثورات والتمرد كالشيعة والخوارج وغيرهم --- .

وبالرغم من الشدة والقسوة التي كان يتعامل بها هذا الجهاز مع خصوم الخلفاء والحكام إلاّ أنه قد أخفق في كثير من الأمور ولم يتمكن من حفظ الخلافة خاصة بعد العصر العباسي الاول حيث سيطر عليها الفرس والأتراك السلاجقة ولم يتمكن من حفظها من السقوط بيد المغول .

ومما يجب معرفته هو أن الإسلام برئي مما أقترفه الخلفاء المسلمون ومن سواهم من السلاطين والأمراء والولاة منذ قيام الدولة الأموية إلى وقتنا الحاضر .

فالإسلام أسمى من أن تنتهك بأسمه حقوق الإنسان بمثل هذه الفضاعة ، بل لعل الإسلام حفظ حقوق الانسان ورعاها أكثر مما حفظته الديانات الأخرى ، ولكنهم حكموا بأسمه ومازالوا يحكمون .

- **هوامش البحث:**

- سورة الحجرات ، آية 6 .
- أبن هشام : السيرة ، دار المجمع العلمي ، (بيروت ، 1973م) ، جـ1 ، ص173 كذلك عبدالسلام هارون : تهذيب السيرة ، ص179 .
- عبدالسلام هارون : تهذيب السيرة ، ص79 .
- أبن هشام : السيرة ، جـ2 ، ص182 .
- محمد بن إسحاق بن يسار : المبتدأ والمبعث والمغازى ، تحقيق وتعليق محمد حميد الله ، (ب. ت) ، ص ص131 ، 132 .
- أبن كثير : البداية والنهاية ، جـ3 ، ص211 ، وكذلك الطبري : تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار المعارف ، (القاهرة ، 1975م) ، جـ4 ، ص312 .
- أحمد الشامي : تاريخ العرب قبل الإسلام وحياة محمد ﷺ ، دار النهضة العربية (القاهرة ، 1975م) ، ص125 .
- أبن هشام : السيرة النبوية ، جـ2 ، ص184 .
- نفس المصدر والجزء والصفحة .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ3 ، ص293 .
- أبن حجر العسقلاني : الاصابة ، جـ4 ، ص511 .
- سورة الحجرات ، الآية 12 .
- صحيح مسلم ، جـ2 ، ص531 .
- أبن إسحاق : السيرة ، ص ص91 ، 92 .
- أبن حجر العسقلاني : الاصابة ، جـ2 ، ص ص83 ، 84 .
- نفس المصدر ، جـ3 ، ص ص290 ، 291 .
- أحمد الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص48 .
- نفس المرجع ، ص49 .
- أبن عبدربه : العقد الفريد ، ص294 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ2 ، ص31 ن كذلك المسعودي : مروج الذهب ، جـ2 ، ص37 .
- أحمد الشامي : الخلفاء ، ص ص345 – 389 .
- قثم بن العباس : أبن عم رسول الله ﷺ ، صحابي جليل شارك في فتح بلاد ما وراء النهر ، وأستشهد في بخارى ، وقيل سمرقند ، وله قبر وضريح يزار حتي اليوم = باتولد : التركستان ، ص89 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ2 ، ص317 .
- أبن قتيبة : الامامة والسياسة ، جـ1 ، ص74 .
- نفس المصدر ، ص75 .
- عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء والامويين ، مكتبة الانجلو المصرية ، (القاهرة ، ب) ، ص152 .
- أحمد الشامي : الحضارة الإسلامية ، آداب الزقازيق ، ص95 .
- حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ن (القاهرة، 1985م) ، ص190 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ4 ، ص60 .
- الكامل ، جـ4 ، ص61 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ4 ، ص167 .
- تاج العروس ، مادة حرس ، جـ4 ، ص126 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ4 ، ص198 .
- نفس المصدر ، والجزء ، ص168 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ3 ، ص194 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ4 ، ص134 .
- نفس المصدر ، والجزء ، ص267 .
- نفس المصدر والجزء ، ص258 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ4 ، ص178 .
- نفس المصدر ، جـ5 ، ص231 .
- أبن مسكوية : تجارب الأمم ، جـ1 ، ص60 .

- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص ص322 – 324 .
- عبدالعزيز الدوري : العصر العباسي الأول ، ص ص53 ، 54 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص313 .
- الدانق : أصغر عمله في العصر العباسي وقد سمي به أبوجعفر لحرصه الشديد على المال = أحمد الشامي : الدولة الإسلامية ، ص49 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص317 .
- نفس المصدر والجزء والصفحة .
- أحمد الشامي : الدولة الإسلامية ، ص58 .
- نفس المرجع والصفحة .
- أبن مسكويه : تجارب الأمم ، جـ1 ، ص59 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص337 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ5 ، ص411 .
- أبن مسكويه : تجارب الأمم ، جـ1 ، ص41 .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص448 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص384 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ8 ، ص ص81 ، 82 .
- أبن مسكويه : تجارب الأمم ، جـ1 ، ص59 .
- أبوحيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، ص68 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص337 ، كذلك أحمد الشامي : الدولة الإسلامية ، ص138 .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص113 .
- أبو الفرج الاصفهاني : الأغاني ، جـ1 ، ص466 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ4 ، ص421 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ7 ، ص631 .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص448 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص324 .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص448 .
- أحمد الشامي : الدولة الإسلامية ، ص ص169 ، 170 .
- أبن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ5 ، ص310 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ8 ، ص291 .
- نفس المصدر ، جـ6 ، ص235 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ7 ، ص535 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص328 .
- نفس المصدر ، جـ8 ، ص191 ، كذلك أبن الأثير : الكامل ، جـ4 ، ص586 .
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص44 .
- نفس المصدر والجزء ، ص430 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ3 ، ص383 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ جـ3 ، 5 ، ص ص383 ، 139 ، كذلك أبن طباطبا : الفخري ، ص276.
- الطبري : تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص181 .
- أبن الأثير : الكامل ، جـ5 ، ص85 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

- **القرآن الكريم** .
- **أبن الأثير** ، علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت 630هـ/ 1238م) :
الكامل في التاريخ ، دار صادر (بيروت ، 1965م) .
- **أبن حجر** ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ/ 1449م) :
الاصابة في تمييز الصحابة ، دار الكتاب العربي (بيروت ، 1986م) .
- **أبن خلكان** ، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت 681هـ/ 1282م) :
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، 1977م) .
- **أبن طباطبا** ، محمد بن علي بن الطقطقي (ت 701هـ/ 1301م) :
الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، مطبعة محمد علي (القاهرة ، 1962م) .
- **أبن عبدربه** ، أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي (ت 328هـ/ 440م) :
العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، 1965م) .
- **أبن قتيبة** ، أبومحمد عبدالله بن مسلم (ت 276هـ/ 889م) :
الامامة والسياسة ن دار الفكر (القاهرة ، 1904م) .
- **أبن كثير** ، عماد الدين أسماعيل بن عمر أبو الفداء الدمشقي (ت 774هـ/ 1372م) :
البداية والنهاية ، تحقيق أحمد عبدالوهاب فتيح ، دار الحديث (القاهرة ، 1998م) .
- **أبن مسكويه** ، ابوعلي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421هـ/ 1030م) :
تجارب الأمم ، نشر أمدروز ، مطبعة شركة التمدن الصناعية (القاهرة ، 1915م) .
- **أبن هشام** ، أبو محمد عبدالملك (ت 218هـ/ 833م) :
السيرة النبوية ، تحقيق مصطفي السقا وإبراهيم الأبياري ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، 1971م) .
- **أبن يسار** ، محمد بن إسحاق (ت 151هـ/ 781م) :
سيرة أبن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمفازى ، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة ، ب ، ت) .
- **أبوحيان التوحيدي** ، علي بن محمد بن العباس (ت 380هـ/ 990م) :
الامتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين (بيروت ، ب ، ت) .
- **الزبيدي** ، محي الدين أبو الفيض السيد محمد الحسيني (ت 1250هـ/ 1790م) :
تاج العروس من جواهر القاموس (القاهرة ، 1888م) .
- **السيوطي** ، جلال الدين بن عبدالرحمن (ت 911هـ/ 1505م) :
تاريخ الخلفاء ، تحقيق إبراهيم صالح ن مكتبة الخانجى (القاهرة ، 2005م) .
- **الأصفهاني** ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ/ 966م) .
كتاب الأغاني ، مطبعة بولاق (القاهرة ، ب ، ت) .
- **الطبري** ، أبوجعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/ 1922م) :
تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف (بيروت ، 1953م) .
- **المسعودي** ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 354هـ/ 965م) :

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار التحرير (القاهرة ، 1966م) .

- **النيسابوري** ، أبوالحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري (ت 261هـ/ 874م) : صحيح مسلم ، المكتبة الإسلامية ، (اسطنبول ، ب ، ت) .

ثانياً : المراجع

- **حسن ، حسن إبراهيم** : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، والاجتماعي ، دار النهضة العربية (القاهرة ، 1975م) .
- **الدوري ، عبدالعزيز** : العصر العباسي الأول ، دار صادر ، (بيروت ، 1986م) .
- **الشامي ، أحمد** : الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، دار الفكر العربي ، (القاهرة ، 1986م) .
- **ماجد ، عبدالمنعم** : التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الأمويين ، الانجلو المصرية (القاهرة ، ب ، ت) .
- **هارون ، عبدالسلام** : تهذيب سيرة أبن هشام ، دار صادر ، (بيروت ، 1973م) .